- ٤ -

النموذج الثالث

وعلى هذا الدرب سار ثالثهم[١] . . الذى :

● حكم بالتاريخية على كل القرآن الكريم - بكل ما فيه من عقائد . . وشرائع . . وقيم وأخلاق - . . لأن هذا القرآن - حسب قوله - نص بشرى ، تكوّن فى الواقع . . ومن الواقع . . ومن ثَمَّ فهو تاريخى ككل النصوص البشرية التى يكوّنها الواقع ، فتصبح تاريخية بتاريخية هذا الواقع . . وبنص عبارته :

« إن القرآن خطاب تاريخى ، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا[٢] . . وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة فى النصوص[٣] . . لقد تشكّل القرآن من خلال ثقافة شفاهية . . والوقائع هى التى أنتجته . . ففى مرحلة تشكّل النص فى الثقافة تكون الثقافة « فاعلاً » والنص « منفعلاً »[٤] . . وتكون

---

(١) هو الدكتور نصر حامد أبو زيد .

(٢) دكتور نصر حامد أبو زيد: مجلة [القاهرة] - مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - أكتوبر سنة ١٩٩٢م .

(٣) دكتور نصر حامد أبو زيد [نقد الخطاب الدينى] ص ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

(٤) دكتور نصر حامد أبو زيد [مفهوم النص] ص ٩ ، ١٠٩ ، ٢٠٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ .

الثقافة ـ اللغة ـ فاعلاً ، والنص مفعولاً[1] . . فالنص ، فى حقيقته ، مُنْتَج ثقافى . والمقصود بذلك أنه تشكّل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا . . والفكر الرجعى ، فى تيار الثقافة الإسلامية ، هو الذى يباعد به عن طبيعته الأصلية بوصفه «نصًا» لغويًا ، ويحوله إلى شىء له قداسته[2] . . إن الواقع هو الأصل . من الواقع تكوّن النص ـ [القرآن] ـ ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه ، ومن خلال حركته بفعالية البشر تتجدد دلالته . فالواقع أولاً ، والواقع ثانيًا ، والواقع أخيرًا[3] . . والواقع الذى تشكّل النص من خلاله . . يشمل الأبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، ويشمل التلقى الأول للنص ومبلّغه ـ [الرسول] ـ كما يشمل المخاطبين بالنص[4] . . والنص القرآنى : مجموعة من النصوص . . وإذا كان يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى ، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلاً ، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل

---

(١) [نقد الخطاب الدينى] ص ٢٢١ .

(٢) [مفهوم النص] ص ٢٧ ، ٢٨ ، ١٤ .

(٣) [نقد الخطاب الدينى] ص ٩٩ .

(٤) [مفهوم النص] ص ٣٠ .

فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكوّن النص القرآنى ، كما يتمثل فى تعدد مستويات السياق المحددة لدلالة كل جزء من أجزائه . . وهذه التعددية النصية فى بنية النص القرآنى تعد فى جانب منها نتيجة للسياق الثقافى المنتج للنص ، لأنها تمثل عناصر تشابه بين النص ونصوص الثقافة عامة ، وبينه وبين النص الشعرى بصفة خاصة . . فسياق مخاطبة النساء ـ [فى القرآن] ـ المغاير لسياق مخاطبة الرجال ، رغم الجمع بينهما فى سياق واحد فى كثير من الأحيان ، يمثل القرآن فيه تجاوزًا للنصوص الشعرية السائدة ، وانحيازا لنصوص الصعاليك ، حيث تمثل الزوجة مخاطبًا فى بعض نماذجه»!![1]

هذه هى رؤية صاحب هذا المشروع الفكرى ـ الحداثى التنويرى العلمانى ـ للوحى القرآنى . . فهو ـ بنظره ـ « خطاب تاريخى ، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا » . . أى أن كل ما فى القرآن هو « تاريخى » لا ثبات له أو فيه . . لأنه « نص بشرى . . تكوّن فى الواقع . . فالواقع هو صانع القرآن وفاعله ، والقرآن مصنوع للواقع ومنفعل به .. فالواقع أولاً ، والواقع ثانيًا ، والواقع أخيرًا»!! . .

---

(١) مجلة [القاهرة] ـ مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق ـ أكتوبر سنة ١٩٩٢م .

● وكذلك حال النبوة والوحى ـ عند صاحب هذا المشروع الفكرى ـ . . فليس فيهما إعجاز مفارق للواقع . . وإنما هى ظاهرة إنسانية ، يفسرها «الخيال» و«قوة المخيلة» على النحو الذى يشبه ما عند «الشعراء» و«العارفين»! . . وفى ذلك يقول :

«إن تفسير النبوة بالاعتماد على مفهوم «الخيال» ، معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية التى تكون فى «الأنبياء».. بحكم الاصطفاء والفطرة ـ أقوى منها عند سواهم من البشر . وإذا كانت فاعلية «الخيال» عند البشر العاديين لا تتبدى إلا فى حالة النوم وسكون الحواس عن الانشغال بنقل الانطباعات من العالم الخارجى إلى الداخل ، فإن «الأنبياء» و«الشعراء» و«العارفين» قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» فى اليقظة والنوم على السواء . وليس معنى هذا التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة «المخيلة» وفاعليتها ، فالنبى يأتى على رأس قمة الترتيب ، يليه الصوفى العارف ، ثم يأتى الشاعر فى نهاية الترتيب . .

والنبوة فى ظل هذا التصور،لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة.. ويمكن أن يفهم الانسلاخ أو «الانخلاع» ، فى ظل هذا التصور ، على أساس أنه تجربة خاصة ، أو حالة من حالات

الفعالية الخلاقة .. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحى ـ القرآن ـ لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع ، أو تمثل وثبا عليه وتجاوزًا لقوانينه ، بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها وتصوراتها . . فلقد كان محمد ـ المستقبل الأول للنص ــ جزءًا من الواقع والمجتمع . كان ابن الواقع ونتاجه..»[1] .

هكذا أنكر صاحب هذه النزعة التاريخية المادية أن يكون هناك إعجاز أو معجزة مفارقة للواقع فى الوحى والنبوات والرسالات . .

● وتبعًا لحكم صاحب هذا الاتجاه على كل القرآن الكريم بأنه « خطاب تاريخى . . ونص بشرى» حكم بأن ما جاء فى هذا القرآن من « عقائد» هى ـ الأخرى ـ تاريخية ، لأنها ـ برأيه ـ ثمرة لأساطير الواقع الذى أفرزها . . وبعبارته :

« فإن العقائد هى تصورات مرتهنة بمستوى الوعى وبتطور مستوى المعرفة فى كل عصر . . وإن النصوص الدينية قد اعتمدت فى صياغة عقائدها على كثير من التصورات الأسطورية فى وعى الجماعة التى توجهت إليها النصوص الدينية بالخطاب . . »![2].

---

(١) [مفهوم النص] ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٣٨ ، ٦٧ .

(٢) [نقد الخطاب الدينى] ص ١٩٨ .

● وكذلك الشريعة ـ برأى صاحب هذه النزعة التاريخية ـ ليست وضعًا إلهيًّا ، ولا تنزيلاً سماويًّا . . وإنما هى ثمرة للواقع الذى أفرزها وصنعها . . ومن ثَمَّ فهى مرتبطة بهذا الواقع . . وبعبارته :

« **. . إن الشريعة . . صاغت نفسها مع حركة الواقع الإسلامى فى تطوره[1] . . وإذا قرأنا نصوص الأحكام من خلال التحليل العميق لبنية النصوص . . وفى السياق الاجتماعى المنتج للأحكام والقوانين ، فربما قادتنا هذه القراءة إلى إسقاط كثير من تلك الأحكام ، بوصفها أحكامًا تاريخية ، كانت تصف واقعًا أكثر مما تصنع تشريعًا ..** »[2].

● ثم ينتهى صاحب هذه النزعة التاريخية إلى الحكم بالتاريخية على كل النصوص الدينية ، ونفى القداسة والإطلاق والخلود عنها وعن دلالاتها وأحكامها . . فيقول :

« **إننا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية . . وإذا كانت النصوص الدينية نصوصًا بشرية بحكم انتمائها للغة والثقافة فى فترة تاريخية محددة ، هى فترة تشكلها وإنتاجها ، فهى**

---

(١) [نقد الخطاب الدينى] ص ٩٩ .

(٢) مجلة [القاهرة] ـ إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الدينى ـ يناير سنة ١٩٩٣م .

بالضرورة نصوص تاريخية» . . وهذه التاريخية «تحرك دلالة النصوص ، وتنقلها فى الغالب من الحقيقة إلى المجاز ..»[1].

* * *

ولقد حاول أصحاب هذا الاتجاه ، الذى يفرّغ الدين من الدين ! . . ويقيم قطيعة معرفية ـ ومن ثَمَّ عملية ـ كبرى مع «الحقيقة الدينية» ، وذلك بتحويل هذه «الحقيقة» إلى «مجاز» يتعدد بتعدد القراء للنص الدينى! . . حاولوا صنع ذلك بلون من «التأويل العبثى» الذى لا صلة له بالتأويل الصحيح المضبوط بضوابط اللغة وثوابت الاعتقاد . . ذلك التأويل الصحيح الذى وضع له القواعد علماء الإسلام ـ من الأصوليين والفلاسفة والمفسرين والفقهاء ـ . . .

حاول أصحاب هذه النزعة التاريخية بهذا «التأويل العبثى» أن يحوّلوا حقائق الألوهيات والنبوات والوحى إلى «مجازات» تثير السخرية . . وتضحك الثكلى! . . فالله ـ فى هذا التأويل العبثى ـ هو : الأرض . . والخبز . . والحرية . . وصرخات الألم . . وصيحات الفرح . . والكفاح المسلح . . والإصلاح الزراعى! . . وصفات الله هى صفات الإنسان الكامل! . . والتوحيد هو وحدة البشرية ووحدة التاريخ! . . والوحى هو البناء المثالى للعالم!

---

(١) [نقد الخطاب الدينى] ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

والعلمانية هى أساس الوحى ! . . والإلحاد هو التجديد والمعنى الأصلى للإيمان !!![1] . . واللوح المحفوظ هو تدوين المعارف والعلوم[2]!! . . والنبوة والوحى هما قوة فى «المخيلة» و«الخيال»![3] . . إلى آخر هذا العبث التأويلى ، أو التأويل العبثى ، الذى هو صورة مستعارة من «الهيرمينوطيقا» Hermeneutics الغربية ، دون زيادة أو نقصان .

ولأن أصحاب هذه النزعة يكثرون الحديث عن الفقيه الفيلسوف أبو الوليد بن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م] ويعتبرونه المنفرد بالعقلانية والتفلسف والتأويل فى تاريخ الإسلام ، فإننا سنجعل ابن رشد هو الذى يعلّم أصحاب هذا التأويل العبثى القواعد العلمية والفلسفية للتأويل الصحيح ، وذلك حتى نعرّى تأويلهم العبثى من أية علاقة بالعلم والفكر واحترام العقول! . .

لقد نبه ابن رشد على أن للتأويل العربى ـ أى فى اللغة العربية ـ ضوابط حددتها اللغة ، فهو لا يجوز إلا فى المواطن التى تتوفر فيها للنص هذه الضوابط اللغوية . . وذلك عندما قال :

---

(١) [التراث والتجديد] ص ٦٧ ، ٦٩ ، ١١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) [من العقيدة إلى الثورة] ١٣٥/٤ .

(٣) [مفهوم النص] ص ٥٦ .

« ومعنى التأويل : هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية ، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التجوّز ، من تسمية الشىء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنة ، أو غير ذلك من الأشياء التى عُدّدت فى تعريف أصناف الكلام المجازى» .

كما نبه ابن رشد على الإجماع الإسلامى على أن التأويل جائز فى بعض نصوص الشرع ، فلقد « أجمع المسلمون على أنه لا يجب أن تُحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا أن تُخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل» . . فما ثبت فيه « الإجماع بطريق يقينى لم يصح» فيه التأويل . . »

كما نبه ابن رشد على وجود شواهد فى النصوص تُعَيِّن مواطن التأويل ومواضعه . . فكأن « ظاهر الشرع» هو سبيل من سبل التحديد لمواطن « التأويل» لأنه ما من منطوق به فى الشرع ، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان ، إلا إذا اعْتُبِرَ وتُصُفِّحَت سائر أجزائه ، وُجد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل ، أو يُقارب أن يشهد» .

وخلص ابن رشد إلى أن المقصد من التأويل ، القائم « على قانون التأويل العربى» هو « الجمع بين المعقول والمنقول» ، وليس إحلال المعقول محل المنقول» .

الأمر الذى جعل بالإمكان إيجاز عناصر قانون التأويل ـ عند ابن رشد ـ على هذا النحو :

١- التأويل جائز .

٢- فى المواطن التى يقوم فيها البرهان على استحالة الظاهر .

٣- وبشرط تحقق شروط اللغة العربية فى المجاز ـ الذى تُخْرَجُ فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها .

٤- وفيما لم يثبت فيه إجماع يقينى على أن المراد هو ظاهر الألفاظ .

٥- وبترشيح دلالات ظواهر بعض النصوص على مواطن التأويل فى بعضها .

٦- ومن أجل الجمع بين المعقول والمنقول ، لا المقابلة بينهما ، والانحياز لأحدهما ، تجاوزًا للآخر أو نفيًا له .

٧- على أن يظل التأويل حقًا للخاصة ، من الراسخين فى العلم ، لا يُصَرَّح به للعامة ، ولا يُثْبَتُ فى كتب الجمهور ـ حتى ولو كان تأويلاً صحيحًا ، مستجمعًا لشروط التأويل وضوابطه ـ وبعبارة ابن رشد :

« . . فهذا التأويل لا ينبغى أن يُصَرَّح به لأهل الجدل ، فضلاً عن الجمهور ، ومتى صُرِّح بشىء من هذه التأويلات

لمن هو من غير أهلها . . أفضى ذلك بالمصرِّح والمصرَّح إلى الكفر . . فلا يجب أن تثبت التأويلات الصحيحة فى الكتب الجمهورية ، فضلاً عن الفاسدة . . وأما المصرِّح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر » .

٨- أما أخبار عالم الغيب ، وكذلك المعجزات ، ومبادئ الشريعة ، وكل ما لا يستطيع العقل الإنسانى الاستقلال بإدراك كنهه ، فلقد أوجب ابن رشد أخذه على ظواهره ، دون تأويل ، لأن هذه العقائد ـ عنده ـ مما تُعْلَم بنفسها ، بالطرق الثلاث للتصديق : الخطابية .. والجدلية .. والبرهانية .. ولذلك ـ كما يقول ـ « لم نحتج أن نضرب له أمثالاً ، وكان على ظاهره ، لا يتطرق إليه تأويل ، وهذا النحو من الظاهر إن كان فى الأصول فالمتأول له كافر ، مثل من يعتقد أنه لا سعادة أخروية ههنا ولا شقاء ، وأنه قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض فى أبدانهم وحواسهم ، وأنها حيلة ، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط . . إن ها هنا ظاهراً من الشرع لا يجوز تأويله ، فإن كان تأويله فى المبادئ فهو كفر ، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة » .

٩- وحتى الحكماء من الفلاسفة ـ برأى ابن رشد ـ لا يجيزون تأويل أخبار الغيب ومبادئ الشريعة والمعجزات .. ولا يجوز

عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد ، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ ، وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يسلّم مبادئها ، ولا يتعرض لها بنفى ولا إبطال ، كانت الصناعة العملية الشرعية أحرى بذلك ، لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم ، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان ، بل وبما هو إنسان عالم ، ولذلك **يجب على كل إنسان أن يسلّم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها ، فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان ، ولذلك وجب قتل الزنادقة .**

فالذى يجب أن يقال فيها : إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلابد أن يُعْتَرف بها مع جهل أسبابها . . ولذلك لا تجد أحدًا من القدماء تكلم فى المعجزات ، مع انتشارها وظهورها فى العالم ، لأنها مبادئ تثبيت الشرائع ، والشرائع مبادئ الفضائل . ولا فيما يقال بعد الموت . فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلاً بإطلاق ، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم ، فعرض له تأويل فى مبدأ من مباديها ، فيجب عليه

أن لا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال تعالى : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ (آل عمران:٧).

هذه حدود الشرائع وحدود العلماء . . »

١٠- ويرى ابن رشد ـ فوق ذلك ـ أن الإفراط فى التأويل ، بعد عصر الصدر الأول للأمة ، هو المسئول عن أمراض الاضطراب والفرقة والتكفير التى شاعت فانتشرت . . « فالصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل (التى ثبتت فى الكتاب العزيز) دون تأويلات فيها ، ومن كان منهم وقف على تأويل لم يصرح به .

وأما من أتى بعدهم ، فإنهم لما استعملوا التأويل قلّ تقواهم ، وكثر اختلافهم ، وارتفعت محبتهم ، وتفرقوا فرقًا . **فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة عن الشريعة ، أن يعمد إلى الكتاب العزيز ، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة فى شىء شىء ، مما كُلفنا اعتقاده ، ويجتهد فى نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً ، إلا إذا كان التأويل ظاهرًا بنفسه ، أعنى ظهورًا مشتركًا للجميع . . ذلك أنه لما تسلط على التأويل فى هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع ، ولا تميز له الصنف من الناس الذى يجوز التأويل**

فى حقهم ، اضطرب الأمر فيها ، وحدث فيهم فرق متباينة يكفّر بعضهم بعضًا ، وهذا كله جهل بمقصد الشرع وتعدٍّ عليه . . » [1].

هكذا وضع ابن رشد قانونًا للتأويل ، وشروطًا لجوازه ، قصرته على ما وراء العقائد ومبادئ الشريعة وأخبار الغيب والمعجزات .. وجعل التأويل فيما وراء ذلك مشروطًا بتوفر الضوابط اللغوية ، وبشهادة النصوص المؤوَّلة على أن فيها تأويلاً ظاهرًا بنفسه للجميع . .

وهكذا يصبح « التأويل العبثى » لدعاة التاريخية « سخرية . . وهزلاً » ، لا علاقة له بالعلم والعلماء!.. بل لقد حكم ـ ابن رشد ـ حكمه الصارم على الزنادقة الذين أولوا فى مبادئ الشريعة والمعجزات والمغيبات .

* * *

---

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . ص٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ . ٦٥ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٩٩م . و[تهافت التهافت] ص١٢٤ ، ١٢٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م . و[مناهج الأدلة فى عقائد الملة] ص ٥١ ، ٢٤٩ دراسة وتحقيق : دكتور محمود قاسم . طبعة مكتبة الأنجلو ـ القاهرة . بدون تاريخ .

- ٥ -

الخلاصة

تلك هى التاريخية . . التى :

- تنزع القداسة عن النصوص الدينية الإلهية التى تقدست فى كل الشرائع والديانات . .
- وتنفى العموم والإطلاق والخلود عن أى من الحقائق والمعانى والدلالات والأحكام التى جاءت فى هذه النصوص الدينية . .
- وتجعل هذه النصوص الدينية ـ بما فيها الوحى السماوى ـ بشرية ، صنعها الواقع . . فى « دياليكتيك صاعد » ــ وليست تنزيلاً ، ولا « دياليكتيكا هابطا » . . فالواقع أولاً . . والواقع ثانيًا . . والواقع أخيرًا . .
- وتجعل العقائد التى جاءت بها هذه النصوص ـ بما فى ذلك عقائد : الألوهية . . والنبوة . . والوحى ــ ثمرة للواقع وأساطيره . .
- وتجعل الشريعة مصنوعة للواقع . . وليست وضعًا إلهيًّا وتنزيلاً سماويًّا . .

- لتصل ـ هذه التاريخية ـ إلى إحالة الديانات وكتبها وعقائدها وشرائعها ومنظومات قيمها وأخلاقها إلى « مستودع التاريخ » ، حاكمة بطى صفحتها مع صفحات التاريخ الذى ظهرت فيه . .

● ومستعينة على ذلك بلون من «التأويل العبثى» ـ الذى لا علاقة له بالتأويل الذى حدد قواعده وضوابطه وشروطه الفلاسفة والمفسرون ـ حتى لنجد ـ فى هذا التأويل العبثى «مسرحا للعبث» يدعى أصحابه أن الله هو الأرض .. والخبز .. والحرية . . والكفاح المسلح . . والإصلاح الزراعى !! . . وأن صفات الكمال والجلال الإلهية ، وأسماء الله الحسنى هى صفات الإنسان !! . . وأن التوحيد هو وحدة التاريخ!! وأن الإيمان هو الإلحاد! . . وأن الإلحاد هو التجديد !! . . وأن النبوة والوحى قوة مخيلة وخيال ، كما هو الحال عند الشعراء والكهان والعارفين !! . .

* * *

وإذا كان المبشرون بهذه «التاريخية» ـ وهم الناقلون لها عن التنوير الوضعى الغربى ، بحذافيرها ، حذوك النعل بالنعل! ـ . . إذا كانوا يحتجون بأن هذا التنوير الوضعى الغربى ، وهذه «التاريخية» ، هى التى جعلت الغرب ينهض ويتقدم ويخرج من عصوره المظلمة . . وأنهم إنما يريدون ـ بهذه المحاكاة ـ تحقيق النهوض والتقدم لأمتنا . . فإنهم يغفلون ويتغافلون عن الفروق الجوهرية بين إسلامنا وبين لاهوت النصرانية الغربية . . بين تاريخنا الحضارى وبين التاريخ الحضارى للغرب . .

● لقد عرف الغرب الكهانة الكنسية التى اختزلت الحقيقة والعلم فى الإنجيل . . وحرّمت التجريب فى الواقع ، لأنه « دنس » ـ ومملكة المسيح ليست فى هذا العالم الدنس ـ . . كما قدست الدولة والمجتمع وثبتتهما عندما حكمت بالحق الإلهى والتفويض السماوى ـ مستبعدة سلطة الأمة ـ . . ومن هنا دخلت هذه الكهانة الكنسية بأوربا فى عصور الظلمات . . فلم يجد فلاسفة التنوير أمامهم إلا هذه « التاريخية » ، التى تنسخ هذا اللاهوت الخرافى لتكسر قيوده وتحطم أغلاله عن رقاب الشعوب والقوميات الأوربية ، وتحيله ـ بالتاريخية ـ إلى « مستودع التاريخ »! . .

● أما إسلامنا ، فهو برىء من الكهانة ـ بل عدو لها ـ حتى أنه لا يعرف ولا يعترف بوظيفة « رجل الدين »! . .

● وتاريخنا الحضارى لم يعرف « حكومة فقهاء »!

● والإسلام هو الذى حفز على إبداع العقلانية المؤمنة ، النابعة من القرآن الكريم ، والمدافعة ـ بالعقل ـ عن عقائد الدين . .

● وهو الذى حفز المسلمين على النظر والتعقل والتفكر والتدبر فى كل أنحاء الخلق والملكوت ، بما فى ذلك الواقع ، والتجريب فيه ، حتى لقد ارتاد المسلمون إبداع المنهج التجريبى فى تاريخ العلم العالمى . .

● ومن هنا . . فإذا كانت حاكمية اللاهوت الكنسى الأوربى ، قد دفعت أوربا إلى عصور الجهالة والظلمات فإن سيادة حاكمية النص الدينى الإسلامى هى التى حفزت المسلمين إلى إحياء المواريث الحضارية القديمة . . وإلى تطويرها . . والإبداع فى الإضافة إليها والبناء عليها . . على النحو الذى جعل الحضارة الإسلامية المنارة التى تفردت بإنارة الدنيا لأكثر من عشرة قرون ، كانت فيها الأمة الإسلامية « العالم الأول » على ظهر هذه الأرض طوال تلك القرون . .

فإسلامنا : نور . . وقرآننا : نور . . ورسولنا : نور . . والحكمة عندنا : نور . . ومن ثَمَّ فإن الاستنارة بها هى السبيل إلى التقدم والنهوض . .

وليست السبيل هى « التاريخية » الغربية ، التى جاءت « حلا غربيًا » « لمشكلة غربية » ـ مشكلة اللاهوت الكنسى ـ الظلامى ـ الذى أدخل أوربا عصور التراجع والجمود والرجعية والظلمات . .

إن تاريخنا الحضارى لم يعرف « المشكلة الأوربية » ، التى استدعت هذه « التاريخية الأوربية » . . وليس من العقل أو الحكمة فى شىء أن « نستورد مشكلة » غربية عنا « لنستورد » لها هذه « التاريخية » الغريبة عن روح الإسلام . .

وليس من العقل أو الحكمة أن نحيل إسلامنا ، الذى هو الحافز على تقدمنا ونهوضنا وعزتنا ، إلى « مستودع التاريخ »! .

المصادر والمراجع

ابن رشد : [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٩٩م .

: [تهافت التهافت] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م .

: [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] دراسة وتحقيق : دكتور محمود قاسم . طبعة مكتبة الأنجلو ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

ابن النجار : [شرح الكوكب المنير] تحقيق : دكتور محمد الزحيلى ، دكتور نزيه حماد . طبعة السعودية سنة ١٩٨٧م .

إميل بولا : [الحرية ، العلمنة ، حرب شطرى فرنسا ومبدأ الحداثة] طبعة باريس سنة ١٩٨٧م .

دكتور حسن حنفى : [التراث والتجديد] طبعة القاهرة سنة١٩٨٠م.

: [من العقيدة إلى الثورة] طبعة القاهرة سنة١٩٨٨م .

: [دراسات إسلامية] طبعة بيروت سنة١٩٨٢م .

: [تربية الجنس البشرى ـ للسنج] ـ تقديم ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

الزركشى : [البحر المحيط] تحقيق : دكتور عبد الستار أبو غدة ـ طبعة الكويت .

سانتيلانا : [القانون والمجتمع] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ترجمة : جرجيس فتح الله ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

السيوطى : [أسباب النزول] طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢هـ .

: [الإتقان فى علوم القرآن] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥م .

محمد سعيد العشماوى : [الإسلام السياسى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م .

: [معالم الإسلام] طبعة القاهرة سنة١٩٨٩م .

: [أصول الشريعة] طبعة القاهرة سنة١٩٧٩م .

: [جوهر الإسلام] طبعة القاهرة سنة١٩٩٢م .

دكتور محمد عمارة : [سقوط الغلو العلمانى] طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٥م .

دكتور نصر حامد أبو زيد : [مفهوم النص] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م .

: [نقد الخطاب الدينى] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

: [مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق] ــ مجلة «القاهرة» عدد أكتوبر سنة ١٩٩٢م .

: [إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الدينى] ـ مجلة «القاهرة» ـ عدد يناير سنة ١٩٩٢م .

هاشم صالح : مجلة «الوحدة» ـ المغرب ـ عدد فبراير / مارس سنة ١٩٩٣م .

obeikandl.com